رأي الدكتور علي جمعة

التصوف في الإسلام

من مبادئنا التي نسير عليها: أننا نؤمن بالدين الإسلامي كله، لا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض. وهذا مبدأ معتمد على الكتاب والسنة، ففي الكتاب: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة:85].

وفي السنة: لا تضربوا القرآن بعضه ببعض (ابن أبي شيبة في المنصف، ولذلك فإننا نؤمن بالكتاب والسنة، بكل الكتاب وبكل السنة، نؤمن بالمناهج التي أرادها الله لنا، ونؤمن بمراد الله من خلقه، فإذا أردنا أن نؤصل شيئا ذهبنا إلى الكتاب وإلى السنة المشرفة، ولا نفصل بينهما، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه.. (أبو داود في سننه والإمام أحمد في المسند).

ورأينا أن الإمام مسلما قد صدر في صحيحه حديث جبريل الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والذي يقول فيه عمر رضي الله تعالى عنه: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، هذه الصفات جعلته مستغربا، فمن هذا الذي جاء؟ حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، أي: أنه جلس جلسة المتأدب أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه كانت جلسة التلميذ

أمام المعلم، وجلس يسأله عن الإسلام، وعن الإيمان، وعن الإحسان، وعن الساعة، ويجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم في نهاية الحديث قال أتدري من السائل؟ فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم، وقد رواه البخاري أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمتأمل في هذا احديث يجد أنه يلخص دين الإسلام، لما سأله جبريل عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. ولما سأله عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. ولما سأله عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

هذا ملخص دين الإسلام، هناك عبدة ظاهرة، تتأكد بالأركان الخمسة، وقد قامت طائفة من أمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ الإسلام في أحكامه.. في تشريعه.. في فقهه.. في جهته الظاهرية التي تضبط حياة الإنسان الفرد، وحياة المجتمع، وحياة الجماعة، جهته الظاهرية التي تضبط حركة الاجتماع البشري، والتي تضبط كل الجوانب الاقتصادية والسياسية، والتي تحدد العلاقات بين الناس، وهذه الأمور كلها مضمنة في هذه الأركان الخمسة: في الشهادتين، وفي الصلاة والزكاة، والصيام، والحج، والتي تمثل هوية الإسلام، ولا يجوز لمسلم قادر واع بالغ عاقل أن يتركها.

وقام علماء يدافعون عن (العقيدة الإسلامية) ويبينون للعالمين كيفية الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالتكليف والوحي، والملائكة والأنبياء والرسل، يبينون كل ذلك، ويجيبون عما خطر في بال البشر من مشكلات.. من معضلات.. من أسئلة درسوها واستوعبوها، ثم ردوا على كل أحد بلغته وبأسلوبه. في علم سمي بـ(علم الكلام) أو (التوحيد) وسمي بـ(أصول الدين)، هذا العلم الجليل هو الذي يحفظ درجة الإيمان.

لكن هذا الإيمان في مجرد تصديقه وصلته بالإسلام، لا يكفي إلا بالجزء الثالث من حديث جبريل، وهو (الإحسان)، فلابد علينا أن نؤمن بهذا أيضا، وهذا هو الجانب الأخلاقي، جانب القيم، يقول صلى الله عليه وآله وسلم عن نفسه: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (الحاكم في المستدرك)، ويقول ربه عز وجل في شأنه: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:4]. وهذا المقام قام السادة الصوفية عبر العصور بحمايته، وبيان هذا الطريق إلى الله، كيف تعبد ربك كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك فالتصوف هو العلم الذي يحمي مرتبة الإحسان، فعندما ننشئ علما يبين للناس كيف يعبدون الله -سبحانه وتعالى- كأنهم يرونه، وكيف أنه في حالة الانحطاط عن هذه الرتبة العلية: كأنك تراه، فإنه يراك، كيف يراقبون الله -سبحانه وتعالى- وما ملامح هذه الطريق التي توصل إلى الله، وفي كل ذلك يعتمدون على الكتاب والسنة، يقول سيد الطائفة الجنيد: طريقنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

عندما سمى العلماء ما قاموا به في حماية مرتبة الإسلام بـ(علم الفقه)، وسموا ما قاموا به من مجهود في مجال بيان وحماية العقيدة الإسلامية بـ(علم العقيدة) أو (علم التوحيد) أو (علم أصول الدين) أو (علم الكلام)، كانت هذه الأسماء لم ترد على ألسنة الصحابة الكرام مباشرة، وإنما كانت أسماء حادثة، وكانت الصحابة تجمع بين كل ذلك من غير عناء، كانوا من أهل اللغة، يفهمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفوق كل ذلك فقد تربوا في مدرسة النبي المصطفى والحبيب المجتبى صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يربي بالنظرة، ينظر إلى أحدهم فيربيه.

* * *

في العصر الحاضر خلط كثير من الناس بين تصرفات الصوفية وبين التصوف، كما خلط كثير من الخلق بين أفعال المسلمين وبين الإسلام، وأفعال المسلمين في أي مكان وفي أي زمان، لم تكن أبدا حجة على الإسلام.

بل إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحذر الناس من فساد الزمان ومن البعد عن السنة، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم، يبين

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الشريعة هي الأساس، وأننا سنرى فتنا، وسنرى مخالفة، وسنرى اختلافا بين الناس، يقول حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

فالحق أن المسلمين ليسوا حجة على الإسلام، ولما أمر صلى الله عليه وآله وسلم أمير الجيوش قال له:.. وإن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ (أخرجه الإمام أحمد في المسند).

ولذلك، فإننا عندما نتفاوض، نتفاوض باجتهادنا، فليس هذا هو كلام الله ولا كلام رسوله، إنما هذا ما فهمناه من كلام الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أجل ذلك، فإن العلماء من أهل التصوف تقيدوا بالكتاب والسنة، واجتهدوا كما اجتهد الفقهاء، وكما اجتهد أهل العقيدة والمتكلمون، اجتهدوا في هذا الفهم، لكنه مقيد بالكتاب والسنة.

نشأت الآن ناشئة تنكر التصوف، لما رأته من بعض خلل أو بدع، ممن ينتسبون إلى التصوف، ولو نظرنا إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لوجدنا أن هذا الذي فعلوه مخالف للمنهج النبوي، فلقد وجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصناما حول الكعبة فلم يهدم الكعبة، وإنما أزال الأصنام وأبقى

الكعبة، هذا هو المنهج النبوي، إنه منهج رباني، كذلك لو نظرنا إلى قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة:158]؛ فهذه الآية تبين: أن الصحابة كان عندهم حرج أن يفعلوا تلك الأفعال التي فعلها المشركون، عندما قصدوا وحجوا إلى بيت الله، وأرادوا إلغاء السعي جملة، لكن السعي من دين إبراهيم، هذا من الحنيفية... هذا بأمر الله سبحانه وتعالى، وهؤلاء المشركون قد خلطوا الوثنية بشريعة إبراهيم، فخلصها الله سبحانه وتعالى منها، وجعل شريعة إبراهيم صافية، نحج بها إلى يومنا هذا: من طواف، وسعي، ورمي، ومبيت، ووقوف بعرفة.. إلى آخر هذا، وخلصها من النواقص أو الزوائد التي أضافها الوثنيون المشركون، لم يلغ هذا الأمر، لأن هذا ليس من الإنصاف، وليس من العدل، ورسول الله صلى الله على وآله وسلم يعلمنا الإنصاف والعدل، ولذلك خلص هذا من ذاك.

وعندما سأله صلى الله عليه وآله وسلم بعض من معه، فقال له: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط (وهو اسم شجرة كان المشركون يعكفون حولها ويعلقون بها أسلحتهم)، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى لموسى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} أخرجه الترمذي، فلم يكفرهم، ولم يلقهم في اليم، وإنما وضح لهم هذا من ذاك.

وعندما سمع امرأة رأته وهي تغني، فقالت: وإن لنا نبيا يعلم ما في غد - وكانت تضرب بالدف، وتندب من قتل يوم بدر- فقال: دعي هذا، وقولي بالذي كنت تقولين (أخرجه البخاري) أي اتركي مسألة أن النبي يعلم الغيب بذاته، وعودي إلى ما كنت عليه.

منهج واضح أننا إذا اختلط الأمر، لا نرمي الجميع، بل علينا أن نخلص هذا من ذاك، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وننكر البدع والانحرافات.

لكن التصوف في عصرنا الحاضر تاه بين أعدائه وأدعيائه، فهناك من يتمسك بمجموعة من البدع مدعيا أنها هي التصوف، والتصوف براء من ذلك.

التصوف هو حفظ مرتبة الإحسان، التصوف مقيد بالكتاب والسنة، التصوف له علماؤه عبر العصور، كتبوا فيه وعاشوا من أجله، وأوضحوه بألفاظ مختلفة في عصور مختلفة، تكلموا عن الزهد، وألف فيه أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة، تكلموا عن الورع، والتقوى، وأعمال القلوب، وكتب كل هؤلاء في هذا، ولكن ابتلينا في عصرنا هذا بمن يريد أن يخالف المنهج النبوي في حقيقة أمره، إلا أنه تزيا -في الظاهر- بالزي النبوي، تراه يطلق لحيته، ويقصر ثوبه، ويضع سواكه فوق أذنه وكأنه من الجيل الأول، ومن السلف الصالح، ثم تراه -في بعض الأحيان عن جهل، وفي بعض الأحيان عن غرور وكبر يخرج على المنهج النبوي، أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من كلام خير البرية، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

***

obeikandl.com